المحاضرة السادسة: صفات أسلوب القرآن (الوضوح، القوة، الجمال)

الأسلوب في اللغة: يطلق الأسلوب في لغة العرب إطلاقات مختلفة: فيقال للطريق بين الأشجار، وللفن وللوجه، وللمذهب، وللشموخ بالأنف، ولعنق الأسد، ويقال لطريقة المتكلم في كلامه أيضا.

الأسلوب في الاصطلاح: تواضع المتأدبون وعلماء العربية على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه[1].

معنى أسلوب القرآن: وعلى هذا فأسلوب القرآن هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به. وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر، تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها.

جمالية الأسلوب القرآني: لقد اختار الله سبحانه أن تكون رسالته الخاتمة إلى العالمين في قالب جمالي إعجازي، فالقرآن يشتمل على مضمون الرسالة، وعلى البرهان الذي يصدقها في الوقت نفسه وهو المتعبد بتلاوته، المعجز بلفظه ومعناه، ورغم أن إعجازه متعدد ومتجدد، وقد بلغ به بعض العلماء ثمانين وجهاً، إلا أن الإعجاز الجمالي البلاغي يظل الوجه البارز من بين كل وجوه الإعجاز. ويكفي أنه كلام الجميل الذي يحب الجمال* "إن الله جميل يحب الجمال، وكيف لا يكون القرآن كذلك وهو أحسن الحديث "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ" [الزمر:23]. وكيف لا يكون كذلك وهو القيم "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ] "الكهف:1-2]. قال القرطبي

---

[1]- الزرقاني (عبد العظيم)، مناهل العرفان، ص449.

*- علم الجمال باب من أبواب الفلسفة يبحث في الجمال ومقاييسه ونظرياته. والجمال موضوعي، أي قائم في الأشياء وليس أمراً ذاتياً نضفيه عليها من عندنا. ويدخل في تقويم الأشياء من الناحية الجمالية الحس والعقل معا. وللجمال مقاييس محددة يمكن استخراجها من الأشياء، ومن ثم تطبق على الموضوعات التي نريد الحكم عليها. والذي يزكي القول بموضوعية الجمال عموما، أن خصائصه مشتركة بين الغالب الأعم من الثقافات الإنسانية قديما وحديثا، ولا يكاد يشذ عن ذلك إلا التيارات الحداثية في الثقافة المعاصرة، فهي التي غلبت ذاتية الفنان على موضوعية الفن، فمن خصائص الجمال في الكثير من هذه الثقافات: الدقة والتناسق والتمايز والتنوع، والتكثيف والوضوح والكمال والقصد والوسطية والبساطة، ... إن مفهوم الجاحظ للجمال يشبه مفهوم أرسطو، فهو يقوم على فكرة الاعتدال أو التوسط أو التناسب.

في تفسير قوله تعالى: "وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا" (أي معتدلاً لا اختلاف فيه) ويتحقق الجمال في القرآن الكريم بتوفر العناصر الآتية:

– فصاحة اللغة القرآنية– جمال وقع المفردة القرآنية في السمع–الدقة الفائقة في اختيار المفردة القرآنية–الإيحاءات الرائعة للمفردة القرآنية–روعة تجسيد المفردة القرآنية لمعناها–مطابقة اللفظ القرآني للمقام الذي يرد فيه– وضع الألفاظ الموقع اللائق بها بحسب مل يقتضي الحال[1].

خصائص أسلوب القرآن:

إن الخصائص التي امتاز بها القرآن، والمزايا التي توفرت فيه حتى جعلت له طابعا معجزا في لغته وبلاغته، أفاض فيها العلماء بين مقل ومكثر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف وجفت أقلامهم لم يزيدوا على أن قدموا لنا قليلا من كثير، وقطرة من بحر معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء، وأن ما خفي عليهم أكثر مما ذكروه، فلم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب الأمثلة رجاء الإضاح والتبيين. أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب[2]. ونحن بدورنا نذكر شيئا من هذه الخصائص علو وجه التقريب والتمثيل أيضا:

1– مسحة القرآن اللفظية الخلابة والعجيبة التي تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومدّاته وغناته، واتصالاته وسكناته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور. وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول لقرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام سواء أكان مرسلا أم مسجوعا، حتى خُيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر، لأنهم أدركوا في إيقاعه لذة، لكنهم سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا، حتى قال قائلهم (وهو الوليد بن المغيرة): "... وما هو بالشعر..." **جاء ذلك في كتب السيرة والسنة، فمن ذلك ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فو الله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا**

[1] – للتفصيل أكثر راجع كتاب: الجمال في القرآن مفهومه ومجالاته، عبد الجواد محمد المحص،

[2] – نفسه ص452–453.

بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر)يؤثر يأثره عن غيره)، فنزلت: "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا" (13). سورة المدثر

ونريد بجماله اللغوي تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، حيث إنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة ، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات، (هذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر...) إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد.

2-إرضاؤه العامة والخاصة: ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته العامة أو قُرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم. وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قُرئ عليهم، أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام.

3-إرضاؤه العقل والعاطفة: ومعنى هذا أن الأسلوب القرآني يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال معا،ففي النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير وقوة وجدان، وكل منهما تحتاج إلى ما لا تحتاجه الأخرى، والحكماء والعقلاء لا يخاطبون إلا العقل والفكر، والأدباء والشعراء لا يخاطبون غالبا إلا الوجدان، فإنك لا تجد فيلسوفا يخاطب عاطفتك، أو شاعرا يخاطب عقلك، فالحكماء هم الذين يقنعون العقل، والأدباء والشعراء هم الذين يمتعون العاطفة، ولا نجد من يجمع بينهما فيا لخطاب إلا ما نجد في كتاب الله تعالى.

4- جودة سبك القرآن وإحكام سرده: ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره، مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع طول نفسه وتنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد. وآية ذلك أنك إذا تأملت القرآن الكريم وجدت منه وحدة متماسكة متآلفة، فبين كلمات الجملة في السورة الواحدة من التآخي والتناسق، ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط، ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات. وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابا سوي الخلق حسن السمت " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا".(النساء82)." **قُرْآناً عَرَبِيًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**" (الزمر 28). فكأنما هو سبيكة واحدة، تأخذ بالأبصار، وتلعب بالعقول والأفكار، وهذا وغيره دال على جودة السبك وإحكام السرد بين أجزاء تلك السبيكة البديعة المتآلفة التي تريك كمال الانسجام بين سور القرآن وآياته.

5- **براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام:** ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة.

6- **جمعه بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان لا تجتمعان في كلام واحد من الناس، بل كلامهم إما مجمل وإما مبين.**إلا أسلوب القرآن انفرد بالجمع بين الإجمال والبيان، حيث تقرأ الآية القصيرة التي فيها إجمال وعند التأمل يلوح لك معانٍ كثيرة، وإذا تأمل غيرك وجد فيها غير ما لاح لك من عظيم المعاني والأسرار، ولو تأملها النحاة والبلاغيون لوجدوا فيها ما يبهرهم، ولو تأملها علماء الشريعة لوجدوا فيها من المسائل الكثير. وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير ففيها من ذلك الكثير "**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ"** (فاطر 14). ففي تفسير الإمام القرطبي قال في قول الله تعالى:" **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**" (البقرة 03) ففيها ست وعشرون مسألة.

7- قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى: ومعنى هذا أنك في كلٍّ من جمل القرآن تجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها. بل هو كما قال الله: "**الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" (هود1).**

8- تصوير المعاني: من سمات الأسلوب القرآني تصوير المعاني في الذهن، وإبرازها في صورة كأنها حاضرة، فيصور المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية، والقصص والأمثال، ومشاهد يوم القيامة، وصور النعيم والعذاب وحالات الناس فيها كأنها حاضرة مشاهدة بالتخييل الحسي، وهذا الأسلوب يخاطب الحس والوجدان، ويصل إلى النفس من منافذ شتى، مثال ذلك: نقل اليوم من زمن لا كثافة له ولا وزن، فجعله محسوساً، في مثل قول الله تعالى:" **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا" (الإنسان 27)** (ونقل الغيبة وهي ذكرك أخاك بما يكره إلى شيء محسوس، وهو أكل لحم الميتة في قول الله تعالى: **" أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ**"(الحجرات 12).

فتلك سمة بارزة في أسلوب القرآن الكريم بقصد التأثير، تلين له القلوب، وتقشعر منه الجلود، وتفيض بعظيم تأثيره الدموع، فالقرآن بأسلوبه الذي يصور المعاني يقود السامع إلى الانقياد لله تعالى بالتوحيد، ولنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالإتباع.